احتشاد

«ليتني أستطيعُ الكتابةَ بغموضٍ مثلَ قطةٍ»
« ادجارآلان بو»

أتحركُ يمينا ويسارا منشغلاً عن- تلك الدِّماء التي تنسابُ بهدوء - بلملمةِ ما سقطَ عُنوةً على الأرض فتهشم وتناثرَتْ شظاياهُ من صمتِ البَوْحِ.. !! « نظرتُ جيداً، أمعنتُ تأمُّلَهَا وقد بزغَ ظهورُها جليَّاً بينما احتشدتْ في رأسي أسئلةٌ كثيرةٌ عنها..! كانت كبيرةَ الحجمِ ، شاردةَ النظراتِ وتائهةً تبحثُ لها عن ملاذٍ . لونُها أبيضٌ داكنٌ مختلطٌ ببقعٍ سوداءَ وتشبهُ إلى حدٍّ ما مثيلاتِها اللاتي يأتينَ متسربلاتٍ بالجوعِ ويقفنَ أمامَ مَقْلَبِ الزبالةِ في أولِ شارعِنَا ولا يتحركنْ ولو قليلاً عن فتافيت البقايا المتناثرة إلا أنها كانت معفَّرةً بترابِ الأرضِ وكأنَّما جاءت تركضُ من سفحِ وادٍ موغلٍ في البعد . رحتُ أتحايل لإبعادها عني ، والفرارُ بنفسي بعيدا عن نظراتها الثاقبة نحوي ،لكنها راحت تلفُّ وتلفُّ ، تدورُ وتنزلقُ كذكرى على الأسطحِ الملساءِ حولي ثم تتحايلُ مثلي على اختصار مسافاتِ الغضبِ و اتساع رقعةِ التَّدلُّلِ بيننا .عندما لم أستجبْ لنظرة عينيها المشعَّةِ راحت تُظْهِرُلي مخالبَهَا مهدِّدَةً ، بدت لي وهي تلفُّ حولي «لصاً محترفاً» يعرف جيداً كيف يهدِّدُ ضحاياه ويسحق إرادتَهم بين خياراتٍ عدَّةٍ.. !

إما بسرقة قطع اللحم التي بأيديهم وتركهم جوعى أو الاستيلاءِ على ما كنزوه سرَّاً أو حتى موتهم رُعْبَاً من خمش أظافرها ...؟؟ هل أقف مكتوفةَ الأيدي..؟؟؟ وهذا اللصُ المتدثرُفي احتمالاتٍ شتَّى يودُّ لويعرّيني ممَّا أتدثرُبه من صمتِ البَوْحِ،وانفراجٍ حادٍّ لزاوية النهاياتِ المحتملة..؟؟ قررتُ مجابهَتَهَا فصنعتُ من نفسي تنِّيناً ك»الكومودو»وأظهرتُ لها جسدي المليءَ بالحراشف ومخالبي التي تمزّقُ اللحمَ فبدوت أمامها عملاقا في فراغٍ سرمديٍّ ورحتُ أقذفُ حممَ النَّارِ من روحي علَّها تحرقها فأستريحُ أشعلتُ ناري فاشتعلت روحي توتراً وتوجساً واحتشاداً. وقفتُ في ثباتٍ أمامها فتحدتني بعينيها ولم تتحرك ربما تراجعتْ للوراءِ قليلاً لكنها احتفظت لنفسها بقدرتها على المواجهة وبينما كنت آملُ كثيراً أنْ يزعجَهَا الضَّجيجُ فتخنس

. راحت تهددني بعنفٍ وجموحٍ وتشعلُ شرارتَها بينما في ذات الوقتِ تملؤني خوفاً من ولوج مناطق مغلقةٍ تماماً ومحرَّمُ علىَّ وَطْءُ أبوابِها الخشبيةِ القديمةِ والموصدة بقُفلٍ صَدِئٍ؟؟ تراجعتُ للوراءِ بضعَ خُطواتٍ في محاولةٍ متأرجحةٍ منّي للموائمةِ، للمهادنةِ، للامبالاةِ - لكنها»قطَّتي الّلصة» ،سرعان ما استرقَتْ الخطوَ نحوي وانداحتْ على العقل والروح وأمسكت بزمام لحظتنا سوياً. كنت أعرف أنني أستطيع السباحةَ والركضَ بسرعة لكنني أدرك جيداً أنها لمسافاتٍ قصيرةٍ..!! قالت لي بمكر لا تحاولُ إخفاءَهُ: تعالي معي، هاتِ يدَكِ نقصُّ حكايانا لبعضنا ونهمسُ بأسرارنا للعالم بطريقةٍ مباشرةٍ ودونما تردُّدٍ أجبتُها متوجسةً،علّ جذوتَها تخبو : كفّي عنّي واركضي بعيداً لنْ أستطيعَ معك صبراً أيَّتُهَا «القطةُ- الّلصةُ» ورحتُ أهشُّها بعيداً لكنَّها أمسكتني بأسنانها الأماميةِ من تلابيبِ عباءَتي وظلَّتْ تَمُوءُ بصوتها عالياً ، وأخذتني ، سلبتني كلَّ فُرَصِ التَّردُّدِ المواتية واحتمالية التبخر والتلاشي ثم مشت معي في طريقٍ طويلٍ لا أستطيع منه فِكَاكاً ولا أعرف له اتجاهاً. قالتْ لي : انظري قلتُ ما أنا بناظرةٍ فردَّتْ ناصحةً : استسلمي لغَسَقٍ يجتاحُكِ ،احتشدي لصدْعٍ يبرأُ منكِ فيكِ وألقي بجيشانِكِ على هؤلاء المسحوقين والماكثين دوما في ظلِّ المعابد المقيدةِ بالوجدِ والدَّهشة فأغضضت الطرفَ هدوءاً .راحتْ تزومُ وتتحركُ فَرِحَةً فانصعتُ منقادَةً لحركتها وتفلُّتِهَا. نهضتُ وفتحتُ النوافذَ كلَّها حيثُ رأيتُ أشكالاً متوافقةً ،صُوَرَاً متنافرةً ، مجسَّماتٍ ذات أبعادٍ ثلاثيةٍ ورباعيةٍ ،وأجساداً ذات طبيعةٍ هلاميةٍ ونتوءاتٍ جارحةٍ ، ذات إيماءاتٍ ساخرةٍ وحكمةٍ بالغةٍ..!

كنتُ أُحِسُّ أنني ألمسُ طيناً أرضياً لزجاً ،وأعبرُ ذاكرةَ الّلون الأخضر ركضاً، وأذُوبُ في لمسلاتٍ عاتيةٍ القِدَمِ نَدَمَاً، بينما راحتْ هي تموءُ مَوْءَاً متعاقباً متلاحِقاً متتالياً كلذةٍ متهاديةٍ وكأنَّها تؤكدُ لي على مجهولٍ لا أعرفُه قلتُ لها مؤكدةً وقد نفذَ صبري : هل أستطيع معكِ صبراً.. ؟؟

فردَّتْ عليَّ متجهمةً : وهل تستطيعينَ دوني نبضاً وسَفَراً..؟؟

عندئذٍ انحنيتُ قليلاً حتى تقوَّسَ جسدي ورميتُ لها بقطعةِ لحمٍ مشويّ كنتُ أحتفظُ بها للعشاء ورحتُ أرجوها قائلةً : اتركيني ، حرّريني ، دعيني أعدو هاربةً من فوضاكِ المُحتدِمةِ..!

دعيني ، أو دُلّيني كيف أستطيعُ أن أنفضَ عني احتدامَ الرُّوحِ واحتقانَ الأفكار داخلَ فوضاي ..؟؟؟

أجابتني هازةً ذيلَها وقد أرهفتْ لي نُصْحَاً ..اتبعيني ،اتركيني أكشفُ لكِ الغيبَ وما

لم تعلميهِ ، أعطني الفرصةَ لستطيعي لي صبراً ، واتركي الكلماتِ تنسابُ في لجةِ العشقِ والحنينِ والدهشةِ وارفعي يدَكِ عنها ودعيني أُحرّضْكِ خِلْسَةً لتُحَرّضِي العالَمَ جَهْرَاً ولم يَكُنْ أمامي سوى أن استسلمتُ لها و في لحظةِ تَوْقٍ كانتْ قد دخلتني ودخلتُها ، تماهيتُ تماماً مع الِلصّ وخفةِ يدَيْهِ العاتيةِ لفتحِ الخزائنِ ، وأحضرتُ لها القلمَ والأوراقَ ونقطةَ بَدْءِ التكوينِ لجسدِ التَّفَكُّكِ..!

حتَّى المقعدَ الخشبيَّ غير المبطنِ والناتئةِ مساميرُهُ في عدَّةِ مواضعَ أحضرتُهُ وجلستُ عليه وأنا أنظرُ لها وهى تبادلُني النظراتِ فَرِحَةً مبتهجةً وقد فَتَحَتْ فيما بيننَا كلَّ البواباتِ الَّتي راحتْ تتحركُ في الاتجاهاتِ كلِّها وكأنَّني أقبضُ على ناصيةِ حُلْمٍ أو كأنَّني أصبحتُ راقصةً لرقصةِ الوَجْدِ حيثُ يبدأ الوجودُ من نقطةٍ وينتهي عند ذاتِ النُّقْطَةِ..!

والقطةُ تدورُ ورائي أدورُ وهى تدورُ أدورُ وهى تدورُ أصنع هالةً وتبادلني آهةً بهالةٍ ووقفةً بوقفةٍ وجِلْسَةً بجِلْسةٍ وموتاً بموتٍ حتى يأخذني الدورانُ ويهلكَني وأهْلَكُ حتى أظفرَ وأرتحلَ بعيداً عن الحائطِ ،الطِّلاءِ المتساقطِ ، الأُطُرِ المتكدسةِ على حوائطِ الذاكرةِ فأجلسُ وقد أصبحتُ كوكباً وأصبحتْ قطتي نجمتي المضيئةَ فلا أُلقِي بالاً لتلكَ المساميرِ المحتشدةِ في مقعدي المتهالِكِ والذي نُزِعَتْ قطيفتُهُ بأيدي المارقين الكاتبين لرحلةِ وَأْدِ الدهشةِ في كتابِ الحقيقةِ وقَتْلِ التَّخَلُّقِ بالتَّرَدُّدِ المِخْمَلِيّ . مرتبكةً أروح وأجيءُ، أجلسُ واقفةً ،أُغلِقُ النافذةَ وأَفتحُهَا أُغمضُ عَيْنَيَّ وأملأُ حدقتَيَّ بالمرئياتِ الَّتي تُشِعُّ في لحظةِ الانعتاقِ فأرى السماءَ أفقاً بلا انتهاءٍ، والقمرَ ضياءً ، والنجماتِ مصطفاتٍ ، وراحتْ القطةُ تجرُّ أذيالَ صمتِهَا في أحدِ الأركانِ فهل ماتَتْ قطَّتي وخبَّأَتْ للأبد جذوتَهَا..؟!

جلستُ بمواجهتِهَا وأغمضتُ عينَيَّ ورحتُ أتنفَّسُ بعمقٍ فيأتيني اندفاعُ شلالاتِ الماءِ وأُنصِتُ لهذا الخريرِ الفِضِيّ المُثْقَلِ بالوجودِ وطعمِ الوَجْدِ فيطفو على أسطحِ روحي ابتهالُ الحَيَارَى،والعَطْشى،واللَّاجئينَ على الحدودِ بعدما تفتَّتْ أوطانُهم كلُبَابِ الخبزِ اللَّدِنِ . تَتَّقدُ ذاكرتي ، أتشمَّمُ رائحةَ الدُّخَانِ المتصاعدِ من جثثِ الأطفالِ المُحْتَرَقَةِ في الحُروبِ وأتسمَّعُ صوتَ انفجارٍ مدوٍّ لقصفٍ ، تُعْلِنُ الحروبُ المندلعةُ مسئوليتَهَا التامةَ عنه !! آه يا هذهِ النيرانَ الصديقةَ إلى متى ستبقين مشتعلةً..؟؟

أما كفاكِ موتاً وصمتاً مطبِقاً وإغضاءةَ طَرْفٍ عن قتلى ، وحرقِ بلادٍ بأكملِها لأجلِ قتلى آخرين..!!

أين أنتِ أيتُها الحيرةُ- القطَّةُ.. ؟؟

لماذا أصبحتِ صامتةً..؟؟
دخل جسدُك في وَسَنٍ بريءٍ بينما تعصفينَ بلحظَتِي في اتجاهاتٍ عدَّةٍ لتجعليني أتساءلُ ماذا سأكتب.. ؟؟
وأيُّ الأشكالِ ستناسبُ فوضايَ المحرِقة داخلَ لحظتي الآنيةِ وأنا واقفةً على باب الشَّكِ ..؟؟ هل أكتبُ شعراً أدخلُ به أديرةَ الشعراءِ الرُّهْبَانِ.. ؟ فكيف وأنا لا أجيد الوزن ولا القافية..؟
أم أكتبُ قصةً قصيرةً لأعلن بها انضمامي لرعيل المتحققين الموهوبين على الصعيدين الرَّمزي والواقعي ..؟ أم تُراني سأَبْدَأُ أوَّلَ فصلٍ في روايةٍ أُعَرِّجُ فيها على كلِّ الأطيافِ وأناوئُ فيها شتى المذاهب بطريقة غزلِي.. ؟؟
حبَّذا لو تكلمتُ في الفصل قبل الأخير على لسانِ البطل بطريقةٍ (أيروسية) قليلا واستشهدتُ على الفعلِ بين الحينِ والحينِ بمقولةٍ مشهورةٍ لأحدِ الرُّواة القُدَامَى من تاريخِنَا الماكث..؟؟ ليتني ألومُ الضَّحَايا على وضاعتِهم واستكانتِهم ، هل أستطيع أن أتجرأ ولو قليلاً فأسبُّ ربَّهم الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من إرهاب ..!؟ عن ماذا سأكتبُ دُلِّيني يا قطتي النائمة.. ؟؟ وكيف سأكتبُ ولمن سأكتبُ ومن سيقرأُ وبداخلي ترقد قطتي المتيقظةُ المتنمرةُ على طاولة الفيضانِ..والاحتشادِ..!
؟ هل أكتب عن الحبِّ أم الحربِ ، أم أمتدحُ الواقعَ العربيَّ المجيدَ..!! جلستُ مجهدَةً- بينما رأيتُها في موقفِ الوقفِ، انتشتْ فَرِحَةً محرِّكةً ذيلَها - أحضرتُ لها طَبَقا به بقايا لحمٍ مشويٍّ ورحتُ أرمي قطعةً بيدي على أقصى اتساعها فتجري القطةُ -- أمامي تُرتِّب الفوضى وتناوشُ الحدودَ وتشعلُ النار في خمود الحريق فاحتشدَتِ الأوراقُ بما لا تطيقُ وخرجَتْ من هلاميتها كلُّ الصورِ المرتبكةِ ،وكلُّ الصور التي تلعنُ سفسطةَ الواقعِ والحُلمِ المستحيلِ .. وإدانةَ القططِ السِّمانِ اللَّاتي يأتين لسرقةِ رغيفَ خبزِ البُسَطَاءِ المقهورين.. !!
حين هُيِّئَ لي أني أتممت طريقي رأيتُها وقد هدأتْ كثيراً وبدأت في التثاؤب أنامت حقا هذه المرة ..؟؟
خَفَتَ لهيبُ موائِها وانزوتْ بعيداً رُحْتُ أقرأُ ما جاء على لسانِ البَطَلِ -فارتعدتُ خوفاً وتساءلتُ ماذا لو جاءوا إليَّ صباحاً وعذَّبُوني بعدما فضحتُ الصَّمْتَ المداهنَ،والانفعالَ الخائنَ لكلِّ قططِ العالم السِّمان..؟ عندها تذكَّرْتُ أنَّ هَزْهَزَةَ القطةِ لذيلِها شغلتني وأربكتني فلم أُحْضِرْ مع الأوراق والأقلام ممحاةً فرحتُ أبحثُ عن ممحاةٍ قديمةٍ في أحدِ الأدراج السفليةِ لأزيلَ كلَّ تلكَ التَّرَهُلاتِ اللُّغوية لتبقى قصةُ الأوراقِ ناصعةً ، فلا تتدَنَّسُ بمحاولاتٍ يائسةٍ، ونهاياتٍ مبهمةٍ ، وحريقٍ ليس

كافياً لانتفاضةٍ فجثمتُ على ركبتَيَّ وأمسكتُ الممحاةَ لكنها جاءتني على حينِ غفلةٍ وراحت تخمشُ أظافرها في وجهي ويدي ولم تكنْ لديَّ فرصةٌ لأزيل التقاطعات أو أمحو المواءمات فما كتبتهُ لم يكنْ سوى خليطٍ غيرِ مُتَّسِقٍ تنامُ فيه الشخوصُ غيرَ واعيةٍ للحدَثِ، وتفقدُ فيه القافيةُ لعنتَها الغافيةَ ، ويبدو فيه التاريخُ فضفاضاً والجغرافيا مُتَرَنّحَةً. فلم أستطعْ محوَ كلّ الذي كتبتُ غير محزونٍ عليه ووجدتُني أمامها وقدْ هَدَأَتْ تماماً لا تستبينُ حركةً... فهل ماتَتْ قِطَّتي..؟؟

مددتُ يَدِيَ لأُحَرِّكَهَا فوجدتُها تنظرُلي مليَّاً وعلى حينِ غفلةٍ منّي غرزتْ أظافرَها في لحمي وراحتْ تقتاتُ منه وكنت أراها وهي تقضمُ بأسنانِها من روحي فينفصلُ جزئي عن كلّي ويبتعدُ كلّي في مسافاتٍ متقاطعةٍ عن بعضي بينما لم تعْطِني هدأةَ النِّهاية ولا فَرْحَةَ الدَّهْشَةِ بل فَتَحَتْ جُبَّ الأسئلةِ المغايرةِ ولم أُفِقْ إلا على سيل الدماءِ من رأسي إلى أسفلِ ساقي ، كانتْ دماءً ناعمةً، لزِجَةً، وتسيلُ بهدوءٍ وروِيَّةٍ وأدخلتْني لزوجةُ الخيطِ الأحمرِ المُنسابِ في تماسكِ الأسئلةِ بعضها ببعضٍ مستفهمةً عن كل هذا العددِ من المسامير الملتويةِ الرعناءِ،والناتئةِ كيف نسيتُها حتى استطاعت أن تخترقَ جسدي دونَ أن أشعر بها فأحدثَتْ به كلَّ هذا النزيفِ الصَّامِتِ مُنَحِيَّةً اللغةَ- المستريبةَ - جانباً – عن أُفُقِ الحَكْيِ- المخملي لتظلَّ قطتي تموءُ وتموءُ دونما هوادةٍ وتومِئُ لي بإيماءاتٍ كترنُّحِ الرَّاقِصِ في هالاتِ الكونِ المضيء والانسيابات البنفسجيةِ لنقطةِ بَدْء التَّخَلُّقِ العَصِيَّةِ.. !!